الثقافة الإسلامية

(٥٦)

الأخطار التي تهدد ثقافتنا

(القسم الثاني)

الإصدار الثاني

مع إضافات وتصحيح وتنقيح

محمّد مهدي الآصفي

مختارات من محاضرات ومقالات
ومؤلفات الشيخ محمد مهدي الآصفي
- ٥٦ -

*　　*　　*

اسم الكتاب: ....الأخطار التي تهدد ثقافتنا (القسم الثاني)
المؤلف: .... محمّد مهدي الآصفي
الطبعة الخامسة: .... ١٤٣١ هـ ـ ٢٠١٠م
الكمية .... ٥٠٠٠ نسخة
المطبعة:......... مطبعة مجمع أهل البيت ^ النجف الأشرف

بسم الله الرحمن الرحيم

{إِنَّ هَـذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّـرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً}

الإسراء/ ٩

الأخطار التي تهدد ثقافتنا*

نحن اليوم نعيش أخطر الأزمات الثقافية في تاريخنا، وهذه الأزمات تحمل إلينا تهديدات قوية جدية لثقافتنا وحضارتنا وأجيالنا الصاعدة وكياننا السياسي والاقتصادي.

وذلك أن الصراع الحضاري اليوم، بيننا وبين الغرب، دخل في حالة المواجهة المحتدمة الضارية.. على كل المستويات.

وقد عرف الغربيون أنّ عمليات التخريب الثقافي وخلق الأزمات الثقافية هي الآليات المفضلة عندهم للنفوذ السياسي والاقتصادي والعسكري في العالم الإسلامي.. وقد توارثوا هذه الخبرة جيلاً بعد جيل، منذ دخول نابليون إلى شمال أفريقيا إلى اليوم.

فهم يعرفون مواضع النفوذ، ووسائل بسط السلطة والسياسة على بلادنا.

ويمتلكون اليوم من الآليات القوية الفعالة لنشر الثقافة الدخيلة واختلاق الأزمات الثقافية والطائفية من الفضائيات،

---

* هذا هو القسم الثاني من كتاب (الأخطار التي تهدد ثقافتنا) وقد طبعنا القسم الأول منه في العدد (٥٥) من هذه السلسلة.

والصحف عابرات القارات، وشبكات الأنترنت، والأفلام، والمؤسسات الثقافية والإنسانية ما لم يملكه ولم يعرفه أسلافهم من الفرنسيين والإنجليز.

فأصبح بإمكانهم أن ينفذوا إلى مخادع نوم أبنائنا وبناتنا في عقر دورنا.. وهذا خطر حقيقي يهدّد الجيل الصاعد، إن لم نتداركه بإذن الله.

ولذلك فإن أبحاثاً ودراسات علمية عن أزماتنا الثقافية المعاصرة من هذا القبيل تنفعنا.

وهذه دراسة موجزة، أتحدث فيها إن شاء الله عن الأزمات، والأخطار، والفتن الثقافية التي تهدد ثقافتنا، وبالتبع تهدد كياننا الحضاري والسياسي والاقتصادي والأمني.

كما أتحدث فيها إن شاء الله بما يسعنا المجال والمقال، عن المناهج الثقافية للوقاية والعلاج من هذه الأزمات.

١ـ الغزو الثقافي

تحدثت في الفصل السابق بمناسبة الحديث عن التخريب الثقافي الواسع الذي جرى على ثقافتنا من قبل الجبهة الشرقية (الماركسية الإلحادية) والغربية (الصليبية).. تحدثت عن الغزو الحضاري لثقافتنا في القرن العشرين، والآن نعاود هذا الحديث مرّة أخرى في سياق الحديث عن الأخطار التي تهدد ثقافتنا.

لقد واجهنا منذ بدايات القرن العشرين الميلادي غزواً ثقافياً واسعاً من ناحية الغرب.

وفي هذا الغزو الثقافي والحضاري أقحمت علينا أفكار ومفاهيم ورؤى وتصورات متقاطعة مع ثقافتنا وحضارتنا، يغلب عليها الطابع المادي الصارخ، وتختفي فيها الحالات الروحية والحالات الربانية من الذكر والشكر والإنابة والإخبات والدعاء والمناجاة، وتطغى فيها النوازع والغرائز الحيوانية، وتختفي فيها التقوى وضبط النفس وضبط الهوى، ومخافة الله، وتظهر عليها حالات الأنا والأنانية والبعد عن الله، وتختفي عنها حالات العبودية والتواضع لله ولعباده، وتبرز فيها حالات الحرّية والانفلات من الضوابط، وتختفي فيها

حالات والطاعة والتقوى.

وعلى العموم تظهر عليها حالات المباينة والمتخالفة والمتقاطعة للرؤى والتصورات والأحكام والقيم والأخلاق الإسلامية.

ولسنا هنا بصدد التفصيل في نقاط الاختلاف بين الثقافة الإسلامية والثقافة المادية الجاهلية في الغرب.

غزو أو انفتاح

ومن الخطأ الفادح والمغالطة أن نُسمّي الحالة التي طغت على مجتمعنا منذ أواخر حكم آل عثمان إلى اليوم بالانفتاح الثقافي والعلمي على الغرب.. وإن كان أصحاب مشاريع الغزو الثقافي يغطّون هذه الغارة الثقافية على مجتمعنا بعناوين من أمثال (الحداثة) و(الانفتاح) و(التعامل الثقافي).

العنف الثقافي:

ولكن الحقيقة أننا تعرضنا في العالم الإسلامي في هذه الحقبة لاجتياح ثقافي، بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة، ويحمل هذا الاجتياح كل أوصاف ومقومات الاجتياحات العسكرية ولكن في مساحة الثقافة.

فهو دخول بعنف إلى منطقة الثقافة الإسلامية، من قبل

ثقافة أجنبية غربية عن تاريخ هذه الأمة وحضارتها وتراثها الثقافي.

وإلغاء بعنف لكثير من أصول وقواعد وثوابت الثقافة الإسلامية، إلى حد الاستهتار والاستهزاء والتسخيف للثقافة الإسلامية.

واستبدال لها ببدائل من الثقافة المادية الجاهلية الغربية والشرقية أيضا بعنف.

الآليات:

وإنما نقول بعنف لأن هذه الثقافة الغربية دخلت أوساطنا الثقافية بآليات تمتلك درجة عالية وحادّة من الإثارة والانفعال، وبشكل خاص على الشباب والمراهقين، فلم تكسبهم من خلال التوعية والتثقيف، وإنّما من خلال الآليات القاهرة (بالعنف والقسر).

وهذه الآليات ذات التأثير العالي على المستمعين والمشاهدين والقراء من هذا العمر، تسلبهم حق الاختيار وتفرض عليهم أنماطاً معينة من الفكر والسلوك والانفعال.

وهذه الإثارة الحادّة والقهر من أبرز خصائص هذه الآليات، كالأفلام والقصص التي تروّج للعنف والجنس..

فإنها تشد شرائح المراهقين والشباب، من دون اختيار، وتسلبهم الإرادة والاختيار، بالإثارة الجنسية الحادة، ومشاهد العنف المهيجة للشباب والمراهقين.

وكذلك الأفكار والنظريات ذات الخصلة الشعارية والعاطفية التي تسلب من الناس كثيراً من فرص التعقّل والتأمّل والتفكير.

والآليات التي يستخدمها الغرب ومراسلوهم عندنا في الشرق الإسلامي هي الإذاعة والتلفزة والفضائيات والندوات والمؤتمرات وشبكات الانترنت والأفلام والقصص.

وأعظم من كل ذلك أنهم كانوا يستخدمون مؤسساتنا التعليمية والأكاديمية والإعلامية (من الصحافة، والإذاعة والتلفزيون، والفضائيات، والدراسة الجامعية) ومؤسسات النشر، بل حتى الرياضية، والفن، والبلدية، والإدارية، أدوات لترويج هذه الثقافة.

وقد كانوا يستخدمون مؤسساتنا الإعلامية والعلمية لإشاعة الثقافة الغربية، والتحلل، والابتذال، والتحرّر من

الضوابط الشرعية والأخلاقية والقيم في أوساطنا[1].

وقد عرف كل إنسان يتحسّس ويفهم ما يجري حوله في العالم الإسلامي من المؤامرة الثقافيّة والحضاريّة الكبرى هذه الظروف.

فهل بوسع أحد أن يقول إنّ الذي كان يجري كان يمثّل حالة انفتاح حضاري وثقافي للشرق على الغرب.

لقد أخذ أبي & بيدي بداية دراستي الابتدائية إلى المدرسة الابتدائية في النجف (وهي مدينة دينية يغلب عليها الطابع الديني) وأودعني الفصل الدراسي.

فوجدت نفسي على صغر سني، وقلّة تجاربي الحضارية والثقافية إنني خرجت من وسط حضاري وثقافي آلفها ـ

(١) الحجاب ظاهرة حضارية طاغية على الشارع الإسلامي، وقد شاهدت في بعض الدول الخليجية أن العربات التلفزيونية تحمل نساءً سافرات من موظفات التلفزيون إلى الأسواق ـ عندما كانوا يريدون عرض الأسواق في التلفزيون ـ ليظهرن أمام عدسات الفيديوهات والكاميرات على هيئة نساء يترددن في الأسواق ويقتنين البضاعة لإشاعة حضارة السفور وتحجيم وعزل حضارة الحجاب في بلاد تألف الحجاب والالتزام والإسلام، وكان هذا هو ديدن الحكام في إيران في عصر بهلوي وفي تركيا على يد أتاتورك.

دفعة ـ ودخلت وسطاً حضارياً وثقافياً مختلفاً اختلافاً كلياً عن المساجد والحسينيات وحتى الكتاتيب التي كنا ندرس فيها قبل أن ندخل هذه المؤسسة التعليمية النظامية.

لقد كان أبناؤنا يدخلون المؤسسة التعليمية من المرحلة الابتدائية ويواصلون فيها الدراسة إلى نهاية الإعدادية (يومئذ الثانوية).. فكان الطفل منّا على براءته يشعر منذ أول يوم أنه عندما يدخل المؤسسة التعليمية التي تشرف عليها وزارة التربية والتعليم (المعارف يومئذ) يخرج من وسط حضاري وثقافي مختلف عن الوسط الذي يدخل فيه، اختلافاً واضحاً، ثم يزداد هذا الانفصال ويتّسع في المراحل المتأخرة من الدراسة النظامية.

وعندما يدخل المؤسسة الأكاديمية يكون أبناؤنا وبناتنا قد تمّ صياغتهم الذهنية في مراحل الدراسة الابتدائية والإعدادية لوسط آخر وحضارة وثقافة أخرى غير وسطنا وحضارتنا وثقافتنا.

البرامج الثقافية

بالإضافة إلى الآليات المتقدمة كان هذا الاجتياح الثقافي يجري ضمن برامج مختلفة كالشِعر، والأدب، والقصة،

والتمثيل، والتعليم، والأناشيد الوطنية، والبرامج التربوية، وحتى تسميات الشوارع والمحلات والنوادي وأمثال ذلك.

بين الانفتاح والاجتياح الثقافي

إن هذا الذي كان يجري في ساحتنا الثقافية ولا زال يجري في كثير من بلدان العالم الإسلامي رغم الوعي الإسلامي الواسع الذي حدث خلال السنين المتأخرة.. أقول: إن هذا الذي كان يجري في ساحتنا الثقافية ليس من مقولة (الانفتاح) و(الحداثة) و(التحرر) في شيء، وإنما هو حال الاجتياح والغزو الثقافي بعينه.

وهو نفس الأساليب التي تجري في الغزو العسكري من العنف، وإلغاء نفوذ وسلطة أصحاب البلد، وفرض نفوذ طرف غريب أجنبي عن البلد.

إلاّ أن الذي يجري في ساحة الحرب يتمّ من خلال الآليات العسكرية، والذي يجري في الساحة الثقافية يتم من خلال آليات ومناهج وبرامج ثقافية وإعلامية، ولكنه يحمل نفس معاني (العنف) و(الإلغاء)، وفرض نفوذ ثقافة غريبة على البلد، وهدم الثقافة المغلوبة وعزلها، وإشاعة الثقافة الغازية المغيرة، ودعمها وإسنادها.

وهذا هو للأسف ما حصل في العالم الإسلامي خلال هـذه الفترة.

ولكن الله تعالى شاء أن ينجلي هذا الليـل البهـيم الـدامس، وينفجر الـوعي فـي نفـوس المسـلمين فـي العـالم الإسـلامي، وينشأ جيل مبارك من الشباب يدرك هذه المـؤامرة، ويحـاول أن يخرج من قبضتها.

ومـن عجـب أنّ هـذا الجيـل قـد تخـرّج مـن نفـس هـذه المؤسسات التعليمية والأكاديمية وهو يحمـل الـوعي المضـاد لهذا الاتجاه المادي، ويحمل الوعي والعزم والحركـة للعـودة إلى الإسلام ويقدّمه إلى جماهير المسـلمين، ويتقـدمهم جيـل مـن العلمـاء تخرجـوا مـن الحـوزات العلميـة ليقـودوا هـذه المعركة الحضارية الضارية مع الغرب، بعد أن سـقطت ثقافـة الإلحاد في الشرق، وكفى الله المؤمنين القتال.

٢ـ التعددية الدينية

ظهرت في أوروبا موجة التعددية الدينية كـرد فعـل تجـاه تعنّت الكنيسة الكاثوليكية التي كانـت تـرفض الانفتـاح علـى أفكار الآخرين بشكل مطلق، وليس فقط من غيـر المسـيحيين بل من غير الكنيسة الكاثوليكية أيضاً.

وكان هذا الـرفض والتعنـت الشـديد تجـاه الآخـرين سـبباً لحدوث ردّات فعل قوية في الأوساط الثقافية بأوروبا يومئـذ، وكان منها ظهور البروتستانتية التـي نهـض بهـا لـوثرو كـالفن، وفي الآونـة الأخيـرة ظهـور التعدديـة الدينيـة علـى يـد (جـان هيك) الأمريكي.

درس (جان هيـك) فـي الجامعـات البريطانيـة ورأى حالـة الإقصاء والرفض لأفكار الآخرين بصورة متعنتـة غيـر منطقيـة مـن قبـل الكنيسـة الكاثوليكيـة، فتمخضـت فـي عقلـه نظريـة (التعدديـة الدينيـة) وكتـب فـي ذلـك كتابـه المعـروف عـن (فلسفة الدين).

وقد تأثر (جان هيك) بكتابـات عـالم (الكـلام) و(العقائـد) الألمـاني (شـلايوماخر)، وانطلـق فـي وضـع أسـس نظريـة التعددية الدينية، متأثراً بأفكار (شلايوماخر).

وخلاصة ما يذهب إليه هذا المنظّر الألماني أن للدين لب وقشور. أما لب الدين فهو الانسلاخ من الذات، والعروج إلى الله.. وأما القشور فهي المسائل الأخرى في الدين كالعبادات والطقوس والأحكام الدينية. وفي كل الأديان هذه القشور تخدم اللب.

التعددية والشك

إن مآل التعددية الدينية إلى الشك في الحق وفي القيم، ورفض الحق المطلق، والقيمة المطلقة. وهي وإن كانت غير صريحة في تبنّي مبدأ الشك، إلاّ أن مآل التعددية هو التشكيك في الحق المطلق والقيمة المطلقة، كما ذكرنا.

وموجة الشك ليست جديدة في تاريخ الفلسفة.. فقد ظهرت لأول مرة في اليونان على يد السوفسطائيين الذين كانوا يشكون في وجود الواقع الموضوعي.. وينكرون الحقائق في الكون.

ولما كانت هذه المدرسة متناقضة اندثرت في موطنها.

ولكن الفلاسفة الأوروبيين الجُدد أعادوا الحياة إلى هذه المدرسة المندثرة مرة أخرى فأسّسوا مدارس الشك الحديثة.

فعاد الشك إلى الفلسفة لأول مرة في العصر الحديث في

أوروبا على يد (باركلي)، ثم تطورت مدرسة الشك على يد (دافيد هيوم)، حيث وسع دائرة الشك، حتى في قانون العلية.

ومآل التعددية الدينية كما قلنا إلى حالة الشك في وجود (حق مطلق) و(قيمة مطلقة)، ومآل هذه النظرية إلى التشكيك في الحق، والباطل، والقيم، وأضداد القيم.

القضايا النسبية والمطلقة

هناك قضايا وتقييمات تقوم على أساس ذوقي مثل المسائل الجمالية. فمن الممكن أن يختلف اثنان في تقييم مشهد جمالي بين السلب والإيجاب، أو على درجات مختلفة في التفاضل في ذلك المشهد. كما يختلف الناس في تقييم قصيدة من الشعر، أو جمال الصوت أو الصورة.

ولا شك أن هذه القضايا ليست مطلقة وإنما يختلف باختلاف أذواق الناس.

وهناك طائفة أخرى من القضايا النسبية، هي حالات المصلحة والمفسدة.. فقد يكون تصميم بناء صالحاً للمدرسة وغير صالح للسجن، وبالعكس، وقد يكون دواء صالحاً لمريض وغير صالح لمريض آخر.

وهذه أيضاً حالات أخرى من النسبية لا نشك فيها.

وفي مقابل هذه القضايا النسبية قضايا مطلقة لا يمكن التشكيك فيها.

منها المسائل الرياضية. إن مجموعة زوايا المثلث ١٨٠ درجة لا تزيد ولا تنقص، ولا يختلف مثلث عن مثلث في الأرض ولا في السماء، والخطان المتوازيان لا يلتقيان على الإطلاق في أي مكان وأي زمان على وجه الارض وفي الفضاء.

وكذلك القضايا الفيزياوية، فإن سرعة النور أكثر من سرعة الصوت في كل مكان وكل زمان، والمعادن تتمدد بالحرارة، والحركة من مصادر الطاقة الحرارية في كل الأحوال.

هاتان طائفتان من الحقائق المطلقة في الرياضيات وفي حقول العلوم التجريبية كالفيزياء والكيمياء والميكانيك.

وهناك طائفة ثالثة من الحقائق المطلقة، وهي مسائل التحسين والتقبيح في القيم وأضداد القيم، فإن الظلم قبيح ولا يمكن أن يكون حسناً، والعدل حسن جميل، ولا يمكن أن يكون قبيحاً، والأمانة جميلة والخيانة قبيحة.. وهذه حقائق مطلقة لا تقبل التشكيك. وقد يرتكب الإنسان الكذب القبيح

لضرورة، ولكن ليس معنى ذلك أن الكذب قد تحوّل من قائمة أضداد القيم إلى قائمة القيم، وإنما معنى ذلك تقديم مفسدة على مفسدة أكبر. عندما يقع الإنسان بين مفسدتين لابد له أن يختار أحدهما.. وقد أقرّ بذلك عقلاء العالم بموجب الحكم العقلي اليقيني.

وهناك طائفة رابعة من الحقائق المطلقة تدخل في دائرة الغيب، في مقدمة هذه الحقائق (هو الله سبحانه وتعالى) الحقيقة المطلقة في الكون كله، وكذلك الملائكة والجنة والنار والصراط والميزان..

وقد أقرّ بها جميع الأديان الإلهية.

وهناك طائفة خامسة من الحقائق وهي المنهج الحق المستقيم الذي لا عوج له في حياة الإنسان، وهو الذي يعبّر عنه القرآن في سورة الفاتحة بـ (الصراط المستقيم): {**اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ**} والصراط المستقيم لا يتعدد ولا يتغيّر.. ولذلك يختار القرآن لهذا المعنى كلمة الصراط دون السبيل والطريق والمسلك، لأن الصراط في اللغة العربية لا تتعدد وليس لها هيئة جمع بخلاف الطريق والسبيل والمسلك فإنها تجمع على سبل ومسالك وطرق.

والإسلام هو الصراط المستقيم الذي خطه الله تعالى للناس في معاشهم ومعادهم.

ولن يقبل الله من عباده ديناً غير الإسلام **{إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ}**.

وكل رسالات الله تعالى (إسلام).

{قُلْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} آل عمران: ٨٤ ـ ٨٥.

إذن، كل رسالات الله تعالى إسلام.

وهو دين واحد لا تعدد فيه، غير أنه مراحل ومستويات لمراحل مختلفة من تاريخ الإنسان على وجه الأرض.. فلكلّ مرحلة من تاريخ الإنسان مرحلة من هذا المنهج الإلهي الشامل، فإذا تجاوز الإنسان تلك الحقبة كان له مرحلة أخرى من هذا الدين تماماً، كما أن ما يدرسه الطالب من العلوم الرياضية والتجريبية على امتداد الدراسة الابتدائية والإعدادية والدراسة الأكاديمية دراسة واحدة، وقواعد وأصول واحدة،

غير أنها صممت لمراحل مختلفة، لا اختلاف ولا تعدد فيها، ولكنها مراحل علميّة مختلفة لمراحل مختلفة من عمر الطالب العقلي والعلمي..

وكذلك شرائع الله مراحل مختلفة لدين الله صممت لمراحل مختلفة من تاريخ نضج الإنسان العقلي.

أما شريعة خاتم النبيين فهي آخر مراحل هذا الدين الواحد المتكامل أنزله الله على خاتم أنبيائه محمد صلى الله عليه وآله.

فكل رسالة من رسالات الله تأتي مبشرة بالرسالة القادمة ومصدقة بالرسالة المتقدمة.

فقد جاء عيسى بن مريمﷺ مصدقاً للتوراة بين يديه **{وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعَيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ}**(١). ولكن ليس معنى هذا التصديق أن يعمل أتباع عيسى بن مريمﷺ بالتوراة.. بل بالإنجيل

---

(١) المائدة: ٤٦.

{وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} المائدة: ٤٧.

ثم تأتي المرحلة الأخيرة الخاتمة لرسالات الله مصدقة بما بين يديها من صحف إبراهيم والزبور والتوراة والإنجيل، وفي نفس الوقت مهيمناً عليها. ومعنى الهيمنة أن القرآن حالة متكاملة لصحف إبراهيم والزبور والتوراة والإنجيل.

كما أن الدراسات الأكاديمية العليا التي يتلقاها الطالب عن (المثلث) مثلاً في الرياضيات هي حالة متكاملة عليا لما درسه في الابتدائية عن (المثلث) ومهيمنة عليها، ولكنها ليست حالة أخرى غريبة عليها متخالفة معها..

إنّ هذا الدين منهاج واحد بمراحل مختلفة لمراحل متعددة من تاريخ الإنسان. تأملوا في هذه الآيات:

{وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً} المائدة: ٤٨.

وهذه الآيات تتضمن مجموعة من النقاط:

النقطة الأولى: أن الله تعالى أنزل القرآن على رسوله بالحق.

النقطة الثانية: أنه مصدق لما تقدمه الكتب ومهيمن عليها، فلا اختلاف بينها، ولا تخالف، ولا تقاطع، وإنما هي مراحل مختلفة متكاملة من دين واحد وشريعة واحدة.

النقطة الثالثة: إن الحكم يجري في عصر رسول الله **2** وبعده بما أنزل في القرآن دون غيره من الكتب المتقدمة عليه.

النقطة الرابعة: أن هذا القرآن وما تقدمه من الكتب كله من عند الله، قد جعل الله تعالى كل واحد منها منهاجاً وشرعة لمرحلة من مراحل نضج الإنسان العقلي.

الإيمان بالحق المطلق
والمرونة في السلوك والدين

نعم، ليس معنى الانتماء إلى الدين الواحد والإيمان بوحدة الدين والحق المطلق (في مقابل الحق النسبي).. التقاطع مع الآخرين وإعلان الحرب والرفض على الآخرين، وإنما يدعونا الله تعالى إلى سعة الصدر وحسن اللقاء، وأدب الحوار.

يقول تعالى: {**ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**} النحل: ١٢٥.

والجدال: هو الحوار، وأحسن الحوار هو الحوار الموضوعي المنفتح، من دون شراسة وغلظة، وبأدب، لإقناع الآخرين، وليس لإلزامهم وإفحامهم، وبطريقة مؤدّبة، وليس بطريقة الاستخفاف بالآخرين واحتقارهم.

ويأمرنا القرآن بحسن الاستماع. يقول تعالى: {**الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ**} الزمر: ١٨.

ومعنى ذلك: الانفتاح **أولاً** في الحوار، وانتقاء الأحسن.

ثانياً: على منهج التعاطي والأخذ والرد في جو الحوار، وهو كل أدب الحوار.

ويطلب القرآن من الناس: (التعارف) في اللقاء والحوار، وهو التعاطي في المعرفة، والأخذ والقبول بإيجابية وانفتاح وعقل.

ويدعو الله تعالى عباده الصالحين وأنبياءه إلى اللين في الدعوة والقول، وإلى التذكير برفق، لئلاّ نثير الطرف الآخر، ويتحسّس، وتأخذه العزة بالإثم، ولا نحيّزه إلى جهة الخصومة والصدود النفسي.

يقول تعالى داعيا عبديه ورسوليه موسى بن عمران وهارون صلى الله عليه وآله أن يذهبا إلى فرعون ليدعوانه إلى الله، ويخرجانه عمّا هو فيه من الغي والضلال والشطط، باللين وسعة الصدر، والحرص على هدايته (لعله يتذكر أو يخشى).

يقول تعالى: {**اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى**} طه: ٤٢ـ٤٣.

ويقول تعالى في الحوار مع أهل الكتاب:

{**وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَاب إلاّ بالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إلاّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بالَّذِي أُنزل إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**} العنكبوت/٤٦.

{قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} آل عمران: ٦٤.

{وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ} الإسراء: ٥٣.

وفي التعادي مع غير المسلمين يقول الله تعالى:

{لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} الممتحنة ٨ ـ ٩.

الخلفيات السياسية لموجة الشك:

إن حالة التعددية الدينية قائمة على أساس الشك في قيمة الدين من حيث الحق. والتعددية في حقيقتها، مهما كان شكل إخراجها، تشكك الناس في حقانية الدين.

إنّ هذه الموجة المظلمة من الشك، القادمة إلينا من الغرب مصممة لتشكيك الناس في دينهم وثقافتهم، وانتزاع اليقين من صدورهم، وزرع الشك مكان اليقين.

واليقين والعزم مع بعض دائماً، ومهما حصل اليقين حصل العزم.

وإذا انتزعوا اليقين من صدور الناس سلبوا منهم العزم والإرادة في العمل.

وعندما يفقد الناس اليقين في صدورهم يفقدون العزم في حياتهم وأعمالهم، ويفقدون الصمود والقوة في مواقفهم.

إنّ اليقين قوة ويستتبع حالات القوة في الحياة والحركة والمواقف. والشك ضعف، ويستتبع الضعف في الموقف والسلوك والعمل.

إن حالة الشك تسلب الإنسان حالة الانتماء، والإنسان اللاّمنتمي، مهما يكن حالة ثقافية وحركية عائمة، لا وزن له ولا قيمة في مسير التاريخ.

ولقد حدثت هذه المؤامرة الكبيرة ـ مع الأسف ـ تحت مظلة الانفتاح والعلم والحداثة.. ليتحول (الحق) و(الباطل) إلى حالة ضبابية رجراجة.

موقع الإيمان واليقين في الإسلام

وبعكس ظلمات الشك القادمة إلينا من الغرب والتي تعتبر الشك قيمة علمية وعقلية، واليقين حالة من التسطيح العقلي والعلمي.. أقول بعكس ذلك: الإسلام يعطي لليقين قيمة علمية كبيرة، ويعمل لطرد حالة الشك من عقل الإنسان وصدره.

نقرأ في الآيات الأوائل من سورة البقرة: {**الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ**} البقرة: ١ ـ ٤.

ونقرأ في أُخريات سورة البقرة: {**آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ**}(١)، خمسة وأيّة خمسة، في

---

(١) البقرة: ٢٨٥.

آية سورة البقرة.

إيمان، وانفتاح، وطاعة، واستغفار، وعودة إلى الله.

وما أجملها وأرفعها واسماها من خمسة في حياة المؤمنين قديماً وحديثاً.

ونقرأ في سورة فصلت في صفة القرآن:

{وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} فصلت: ٤١ ـ ٤٢.

.. هكذا حق مطلق، لا يتسرب إليه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

بركات اليقين والانتماء في حياة الإنسان

والاهتمام باليقين لأنّ اليقين أساس العزم والعزم أساس القوة.

واليقين أساس الانتماء والانتماء تخرج الإنسان من الحالة العائمة الضبابية التي ليس فيها لون ولا طعم ولا ثقل.

ومن دون اليقين الإنسان خشبة عائمة على سطح الأحداث.

ولذلك نجد أن خطابات القرآن ليست خطابات عقلية فقط، وإنما يستخدم القرآن نوعاً آخر من الخطاب وهو الخطاب الذي يلامس قلب الإنسان ليطمئن القلب به.

ويستخدم القرآن كل العوامل النفسية والعقلية ليكسبه الإيمان واليقين. ومن ذلك ترسيخ ذكر الله في نفسه، لأن ذكر الله يمنح الإنسان الطمأنينة واليقين، يقول تعالى: {**أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**} الرعد: ٢٨.

فالقرآن يطلب طمأنينة العقول بالإقناع العقلي، ويطلب طمأنينة القلوب بالذكر والتقوى والعمل الصالح. وهذه الطمأنينة دائماً سكينة واستقرار.

إنّ اليقين يؤدي لا محالة إلى سكينة وقوة وعزم وعمل

وحركة.

رحم الله عمرو بن الجموح جاء إلى رسول الله 2 في حرب أحد، وقال: يا رسول الله، أرأيت إن قاتلت حتى أقتل في سبيل الله، أتراني أمشي برجلي هذه الجنة، قال: نعم. وكانت عرجاء[١].. فكانت بيده تمرات يأكلها، فألقاها، وقال لئن عشت حتى آكل تمراتي هذه لكانت حياة طويلة، وقاتل وقتل هو وابن خلاد (رحمهما الله).

وأمر معاوية بهدم قبور شهداء أحد ليجري محلها قناة من الماء، فحفر عنهما ليغيرا من مكانهما، فوجدوا أنّهما لم يتغيرا، كأنما ماتا بالأمس، وكان بين (أحد) ويوم حفر عنهما ست وأربعون سنة[٢].

وقد هازل (برير) عبد الرحمان الأنصاري (رضوان الله عليهما) ليلة عاشوراء، فقال له عبد الرحمان الأنصاري: ما هذه ساعة باطل! فقال برير: لقد علم قومي ما أحببت الباطل كهلاً ولا شاباً، ولكني مستبشر بما نحن لاقون، والله ما بيننا

(١) الإصابة ٢: ٥٣٠.

(٢) سير أعلام النبلاء ٣: ١٥٩.

وبين الحور العين إلاّ أن يميل علينا هؤلاء بأسيافهم، ولـوددت أنهم مالوا علينا الساعة[١].

إن موجة الشك القادمة إلينا من الغرب تسلبنا هـذه التربيـة الإيمانية التي يندر مثلها فـي التـاريخ، وتسـلب شـبابنا اليقـين والطمأنينة والسكينة والعزم والإيمان.

---

(١) تاريخ الطبري، والكامل لابن الأثير.

٣ ـ التلفيق الثقافي والثقافة الهجينة

أول مرة وقفت وجهاً لوجه على الثقافة التلفيقية الهجينة كان قبل خمسة عقود من الزمان... تقريباً.

سمعت خطيباً وأنا أمشي في بعض شوارع النجف عبر مكبرات الصوت ـ أيام فتنة المد الأحمر في العراق ـ سمعته يقول: إن الإسلام دين يجمع بين الاشتراكية والرأسمالية، فهو من حيث الاهتمام بحال الجماعة، والضمان الاجتماعي دين اشتراكي، يملك خصائص النظام الاشتراكي، ومن حيث احترام الملكية الفردية، وقبول الحالة الفردية في الملكية والحقوق دين رأسمالي..

فقلت في نفسي: إن هذا المتحدث أراد أن يمدح الإسلام فذمّه من حيث لا يعلم. فقد سلب الإسلام أبرز خصائصه، وهو أنه دين إلهي لا علاقة له بأي من المذاهب العلمانية التي تنتشر هنا وهناك، وليس تركيباً من هذا أو ذاك.

فقد يلتقي الإسلام بهذا المذهب وذاك خلال تشريعاته وقوانينه وأصوله الفكرية والثقافية، ولكنه منظومة ربانية متكاملة لا علاقة لها بهذا المذهب ولا ذاك، ولن يكون الإسلام اشتراكياً ولا رأسمالياً.

ولم يصب (أحمد شوقي) في رائعته العصماء في ولادة

رسول الله 2 حيث يقول: (الاشتراكيون أنت إمامهم).

فـلا يصـحّ أن نصـف رسـول الله 2 إلاّ بأنـه إمـام الموحدين، ولا يصحح هذا الوصف الذي يصف به رسول الله 2 ما جاء بعده من الشعر.

المفاهيم الدخيلة

لقد فتحت هذه العقلية التلفيقية الأبواب لإدخال مفاهيم دخيلة على المنظومة الفكرية والثقافية الإسلامية قسراً.

فاختلقت تزواجاً بين الإسلام و(الديمقراطية) مثلاً.

لأن الإسلام يقرّ مبدأ (البيعة) و(الشورى) في الحكم، في قوله تعالى: {**وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ**} وقوله: {**وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ**}.

وقد علموا أنّ بين الشورى والديمقراطية قرابة ورحم، واعتقدوا أنّ هذه القرابة تسمح بالتداخل بين الديمقراطية و(الشورى).

وهذا أمر لا يصح، لأن (الشورى) و(البيعة) في الإسلام مفهومان محدودان، ومبدءان من مبادئ الحكم، بينما (الديمقراطية) مذهب سياسي يقوم على أساس حق الناس في التشريع والحكم..

وبموجب هذا المذهب يحق للناس أن يقرروا القانون

والمنهج الذي يختارونه في الحياة، ويحق لهم أن يختاروا نوع الحكم والحاكم الذي يريدونه لأنفسهم، من دون تقييد بقيود وشروط.

وفي الإسلام حق التشريع لله تعالى، وليس بوسع الناس ـ كل الناس ـ أن يغيّروا حكماً واحداً من أحكام الله.

والشورى لا تجري في الإسلام في مساحة الحدود والأحكام الإلهية، وليس لأهل الشورى أن يلغوا حكماً من أحكام الله، ولا أن يشرّعوا حكماً على خلاف أحكام الله.

وكذلك البيعة تجري طبقاً للأوصاف والشروط التي يقررها الإسلام للحاكم ولا يحق للناس اختيار شخص للحكم بغير الشروط التي يقررها الإسلام للحكم.

فالشورى والبيعة إذن تجريان في مساحة الإسلام وطبقاً للضوابط التي يقررها الإسلام.

وهذا شيء آخر غير الديمقراطية.. وإن كانت هناك نقاط من الالتقاء.

وكذلك الأمر في علاقة الإسلام بالاشتراكية. فإن الإسلام يقرّ مبدأ التضامن الاجتماعي ومسؤولية الدولة عن الناس والاشتراكية مبدأ اقتصادي له أصوله وقوانينه وفلسفته وتطبيقاته التي لا علاقة لها بالإسلام.

أضرار المنهج التلفيقي

الثقافة الهجينة التي يدعو إليها أصحاب المنهج التلفيقي تسلب الإسلام أبرز خصائصه، وتفقده أصالته وشفافيته ونقاوة أفكاره، وتصبغه بالصبغة المادية، وتعطي لكل شيء تفسيراً مادياً خالصاً، بينما الإسلام يعطي للغيب مساحة واسعة في العقيدة وفي السلوك.

فالإيمان بالله، والملائكة، والجنّة والنار، والصراط، والميزان.. من الغيب، والدعاء من الغيب والإخلاص لله من الغيب، والتوكل على الله من الغيب.. وهكذا.

والإيمان بالغيب أول صفة في المتقين.

{الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ..}.

والإسلام يعتمد (التعبد) في كثير من تشريعاته، وبشكل خاص في العبادات وفي القضاء.

يقول تعالى: **{فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا}** النساء: ٦٥.

فالإسلام تعبّد وتسليم.

وأصحاب المنهج التلفيقي ينفون صفة التعبد والتسليم، من هذا الدين، ويسعون لإخضاع هذا الدين للتحليل والتفسير في كل شيء.

نعم، الإسلام يدعو إلى التعقّل والتدبّر والتفكير، ويقوم على أساس التعقل والتدبر، ولكن ذلك ليس بمعنى أن نُخضع أعداد الركعات في الفرائض الخمسة للتحليل والتفسير، ولا أن نفسر (الرجم) و(الجلد) و(قطع يد السارق) بأنها أحكام لبرهة من الزمان، كان الناس يتقبلون فيها أمثال هذه الأحكام.

خطر الثقافة التلفيقية

خطر المواجهة الفكرية السافرة للإسلام من قبل خصومه أقلّ من خطر المناهج التلفيقية التي تحاول أن تستعير ملامح ومعالم من المدارس الثقافية الوضعية الحديثة لتحسّن بها صورة الإسلام، وتظهره بمظهر الحداثة وتعطيه البريق الإعلامي الذي يعجب الناس.

حتى إن كان عملهم صادراً عن حسن النيّة.

وذلك أن المواجهة السافرة تنذر المسلمين بالخطر القادم عليهم فيتأهّبون للدفاع عن دينهم وأفكاره وثقافاته.

وأما المناهج التلفيقية فهي تزحف بصورة هادئة غير مثيرة

وغير منبهة، لتنال أبرز خصائص هذا الدين، وتفسرها تفسيراً مادياً مجافياً لروح الدين الإسلامي، من غير أن تثير حذراً وحساسية في نفوس المسلمين.

الذين يدعون المسلمين إلى الإلحاد والأفكار الماركسية يفشلون في دعوتهم غالباً.

إنما الخطر يداهمنا من ناحية أولئك الذين يفسرون الملائكة في القرآن بالطاقات الكونية(١) ويفسرون الشيطان بالقوى المخربة في الكون، ويخرجونها من دائرة الغيب إلى دائرة الطاقات والقوى المشهودة والمعروفة في الفيزياء.

هؤلاء يفسرون (الجدل) الوارد في القرآن بـ (الديالكتيك).

ويفسرون ظهور الأنبياء وانتصارهم بالصراع الطبقي وانتصار الطبقة الكادحة (البروليتاريا) على الطبقة المستثمرة البرجوازية، ويمررون الأفكار الفلسفية المهزومة في مواطنها من خلال المفاهيم الإسلامية.

---

(١) راجع تفسير المنار للشيخ محمد رضا صاحب مجلة المنار في تفسير آيات الملائكة من سورة البقرة. مع كثير احترامنا وإكبارنا للشيخ محمد عبده وتلميذه.

وقد قرأت كتاباً لكاتب إيراني[١] عن حركة الإمام الحسين عليه السلام في عاشوراء بعنوان الحسين عليه السلام ›وارث آدم‹ فوجدت أن الكاتب يريد أن يفسّر ثورة الإمام الحسين عليه السلام على بني أمية، على المنهج الديالكتيكي الماركسي، بأنها صورة من صور الصراع الطبقي من قبل الطبقة الكادحة على الطبقة المترفة المستثمرة.

ولا اعرف منهجاً يفقد هذه الثورة التوحيدية الربانية في تاريخ الإسلام قيمتها مثل هذا المنهج الذي يسلكه هذا الكاتب، ونظراؤه من المنظرين المهزومين نفسياً تجاه الثقافة المادية في الغرب.

ووجدت آخر يفسر ظهور الشيطان في مخالفة الله ومعصيته ونقض إرادته (التشريعية) بالتناقض الذي يحمله التفسير الديالكتيكي للتاريخ وللكون.

وعلى هذا المنوال، إن هذا الخطر الزاحف على ثقافتنا وأفكارنا أخطر بكثير من خطر المواجهة الثقافية السافرة، دون أن ننتقص من خطورة هذه الأخيرة.

---

(١) د. علي شريعتي.

إن هناك خطراً حقيقياً قادماً إلينا من ناحية الغرب، وهجوماً وغارة قادمة علينا، ولكن ليس على حقول النفط وحقول ثرواتنا المعدنية، كما كان الأمر كذلك قبل هذا التاريخ، وإنما الخطر قادم هذه المرّة على ثقافتنا وأفكارنا وأعرافنا: على الدعاء، والصلاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والزيارة، والحدود الشرعية، والإيمان بالغيب، وحالات التعبد في الشريعة، والأعراف الإسلامية.. وهذا الخطر أكبر بكثير من الخطر الأول، دون أن ننتقص من خطورة نهب نفط المسلمين وثرواتهم المعدنية.

بدايات فتنة التلفيق

سلام الله على أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، يفسر في كلامه بدايات ظهور الفتن في تاريخ الإسلام، فيقول عليه السلام:

<إنما بدء وقوع الفتن أهواء تُتّبَع، وأحكام تبتدع، يخالَفُ فيها كتاب الله. يتولى فيها رجال رجالاً.

فلو أنّ الباطل خلص من مزاج الحق لم يخف على المرتادين. ولكن يؤخذ منها ضغث، ومن هذا ضغث،

فيمزجان، فهنالك يستولي الشيطان على أوليائه، وينجو الذين سبقت لهم من الله الحسنى»[١].

إن خصوم الإسلام الذين يريدون النيل من هذا الدين وثقافته يبدأون بالهجوم على مفاهيم هذا الدين وأصوله وفروعه، ولا يبدأون عملهم التخريبي بالتشكيك في قضايا الغيب والتعبد في الإسلام، فإنهم يعلمون إنّ ردود الفعل الغاضبة من قبل المسلمين سوف يحبط مشروعهم، ولكنهم يخلطون ـ كما يقولعليه السلام ـ حقاً وباطلاً، فيأخذن من هذا ضغثاً، ومن ذلك ضغثاً، فيقدمون للناس مزاجاً من الحق والباطل، ومن هذا المنطلق يستدرجون الناس إلى الباطل، ولو أنهم قدموا إلى الناس في البدء الباطل الصراح لم يخف ذلك على الناس، كما يقولعليه السلام.

ولا أريد أن أشكك في نيّة كل الذين يحملون المناهج التلفيقية للثقافة الإسلامية، وإنما أريد أن أقول: إنّ من وراء المناهج التلفيقية مشاريع للتخريب الثقافي في هذا الدين يجب أن ننتبه إليها، قد ينخرط فيها ناس عن حسن نيّة، ولكن

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة ٥٠.

عن جهل.

وأريد أن أقول إن الذين يحملون المشاريع التلفيقية عن حسن نية لتجميل وجه هذا الدين، كما يحبّ الناس، ينطلقون من منطلق الهزيمة النفسية تجاه المدارس الثقافية في الشرق والغرب، وينتهون في الغالب إلى نهايات الشك والريب وسوء العاقبة.

كان يقول أحد منظري الجماعة (الإسلامية ـ الماركسية) في إيران ـ الذين آلت أحوالهم إلى أسوأ العواقب فيما بعد، وأعلنوا مفارقتهم للإسلام وإيمانهم بالماركسية ـ كان يقول: لقد أخذنا بالترقيع بين مفاهيم الإسلام والمفاهيم الماركسية، حتى عجزنا عن الترقيع.. فرفضنا الإسلام ومفاهيمه مرّة واحدة، ولجأنا إلى التفسير العلمي الذي تقدمه الماركسية للمجتمع والتاريخ!!!

الخلفيات السياسية للتلفيق

للتلفيق الثقافي في تاريخ الإسلام ملف أسود، ولو أمعنا النظر في تاريخ الثقافة الإسلامية نجد أنّ من وراء أعمال التلفيق الثقافي مشاريع سياسية غالباً.

فقد كان بنو أمية يروجون لفكرة القدرية والإرجاء، لغايات سياسية واضحة.

ولابد من توضيح لهاتين الكلمتين لأتحدث عن غاية بني أمية في الترويج لهاتين النظريتين.

القدرية:

لـ (القدر) دلالتان في التاريخ العقلي الإسلامي. الدلالة الأولى بمعنى أن الإنسان هو خالق أفعاله، وليس لله تعالى أي دور في فعل الإنسان، وهو ما نصطلح عليه في مصطلحاتنا الكلامية بـ (التفويض).. وهذا هو الذي يذهب إليه الأشاعرة.

والمعنى الآخر لـ (القدر): أن أفعال الإنسان مخلوقة لله تعالى وتجري بإرادته ومشيئته تعالى، ولا دور للإنسان في أفعاله.. وهذا هو الذي يطلق عليه في مصطلحاتنا الكلامية بـ (الجبر). وهو بمعنى الحتمية السلوكية للإنسان، وسلب اختيار الإنسان في كافة أعماله.

فهو إذا صلى وإذا قتل النفس البريئة فلا اختيار له في هذا ولا ذاك.

وقد توزع المسلمون بين هذين المسلكين في الأصول، وهما الاتجاه المعتزلي والأشعري، واحتدم فيما بينهم صراع فكري شديد كالذي حصل في مسألة خلق القرآن... وانتهى هذا الصراع بأفول المعتزلة وظهور الأشاعرة في الساحة الإسلامية.

وقد عارض أهل البيت ^ كلاً من هذين المذهبين، ورفعوا شعار (لا جبر ولا تفويض، بل أمر بين الأمرين).

وهذا المذهب لا يحمل السلبيات التي يحملها كل من هذين المذهبين، ولا يسعنا المقام أن نشرح منهج أهل البيت عليهم السلام في هذه المسألة.

وكان موقف بني أميّة في هذه المسألة هو تبني (القدر) بمعنى (الجبر) ومعارضة (القدر) بمعنى الاختيار المطلق للإنسان.

وقد غالى بنو أمية في معارضة هذا وتبني ذلك.

حتى أنهم كانوا يقتلون القائلين بالقدر بمعنى الاختيار، فقتلوا معبد الجهني[1]، وقتلوا غيلان الدمشقي[2]، وطاردوا القائلين بالقدر بمعنى (الاختيار) مطاردة لا هوادة فيها.

ولا نحتاج إلى تأمل كثير لنعرف لماذا كان بني أمية يتبنون فكرة القدر بمعنى (الجبر) ويعارضون فكرة الاختيار والتفويض.

---

(١) قتله عبد الملك بن مروان صلباً.

(٢) قتله هشام بن عبد الملك، قطع يديه ورجليه حتى مات.

فـإن مسـلك القـدر بمعنـى الجبـر والحتميـة السـلوكية يرفـع المسؤولية عن الإنسان في أفعاله.. لانّ أفعاله صـادرة عنـه بمشـيئة الله وإرادته، وليس له اختيار في أفعاله، ولا يتحمّـل أيّـة مسـؤولية عن أفعاله مهما كان حجمها من العصـيان والإثـم والإجـرام، لأن المسؤولية ناشئة من الاختيار، وبانتفاء الاختيار تنتفي المسؤولية.

فكان هذا المسلك ينزل على بني أمية بـرداً وسـلاماً، يرفـع عنهم كـل مسـؤولية عمـا يقترفـه حكـام بنـي أميّـة مـن الإثـم والجرائم والإسراف في الدماء والأموال.

لـذلك كـان بنـو أميـة يعارضـون مـذهب (القـدر) بمعنـى الاختيار، ويطاردون القائلين به، ويقتلونهم، ويكرمون العلمـاء القائلين بالجبر والحتمية السلوكية.

الإرجاء

مسـلك كلامـي معـروف، يـذهب أصـحابه إلـى كفايـة التصديق في الإيمان.

ويتحقق الإيمان بالتصديق، ولا يضر عمل بإيمان صـاحبه، مهما كان العمل، ومهما أمعن صـاحبه فـي الـذنب والإجـرام، وإنما يرجى (أي يؤخر) أمره إلى يـوم القيامـة، ولـيس لأحـد أن يبتّ في أمره في الدنيا.

وهذا مـذهب يعجـب بنـي أميـة بـالطبع، لأنـه يسـمح لهـم

الإمعان في الإجرام والإسراف في الظلم والقتل وإراقة الدماء وانتهاك الحرمات والتبذير في بيت مال المسلمين، من دون أن يحق لأحد أن يسلب عنهم صفة (المؤمن) والإيمان، ولا يحق لأحد أن يبتّ فيهم بحكم من قبيل الفسق والمروق من الدين والخروج عن الإسلام، وإنما يرجى أمرهم إلى يوم القيامة.

وقد تبنى بنو أمية مذهب الإرجاء، ودافعوا عنه، وبذلوا الأموال في إشاعته، واستخدموا سلطانهم في ترويجه ونشره.

وفي مقابل بني أمية كان لأهل البيت عليهم السلام دور بارز، رغم كل الضغوط والمراقبة، في رفض فكرة (القدر) و(الإرجاء) وشجبهما.

وأما بنو العباس ففتحوا باب الترجمة على الكتب الفلسفية، القادمة من اليونان ومصر وإيران وغيرها من الأقطار التي دخلت في الإسلام، فنشروا الكثير من الأفكار والمفاهيم المعارضة للإسلام في أوساط المسلمين.

ويطول بنا المقام لو أردنا أن نشرح الخلفيات السياسية التي دفعت بني العباس إلى الانفتاح على الثقافات اليونانية والفارسية والمصرية وغيرها في ذلك الوقت.

ومن نافلة القول أن نقول نحن نعترض على ترجمة

الثقافات اليونانية في عهد بني العباس، وأما ترجمة الكتب العلمية كالرياضيات والفلك والنجوم والصيدلة والطب والكيمياء فليس موضع حديثنا ولا نقدنا.

موقف القرآن من التخليط الثقافي

للقرآن الكريم موقف صارم وقوي في شجب التخليط الثقافي، ويدعو المسلمين إلى أن يحصّنوا ثقافتهم من التخليط والتلفيق.

يقول تعالى: **{أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ}** البقرة: ٨٥.

وفي الآية إنكار على أولئك الذين يحرّفون الكتاب، فيأخذون ببعض، ويردون بعض.

ويقول تعالى: **{وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُواْ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ}** البقرة: ٤٢.

وهو خطاب إنكار لليهود الذين كانوا يدخلون في التوراة ما ليس من التوراة. واللبس بمعنى الخلط[1].

---

(١) لاحظ تفسير الآية في تفسير الزمخشري ١: ٨٥ في تفسير الآية ٤٥ من سورة البقرة.

ويقول تعالى: {**لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ**} آل عمران: ٧١.

والخطاب أيضاً خطاب إنكار لأهل الكتاب الذين حرّفوا التوراة والإنجيل، وخلطوا ما فيها من الحق بما لبسوه به من الباطل. واللبس هنا أيضاً بمعنى الخلط.. أو يكون المقصود: لم تشترون الحق بالباطل[1].

ويقول تعالى: {**إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ باللّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللّهِ وَرُسُلِهِ وَيقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً**} النساء: ١٥٠.

وهذا هو معنى التخليط أن يؤمنوا ببعض ويكفروا ببعض، كما فعل اليهود، آمنوا ببعض ما في التوراة وكفروا ببعض.

ويقول تعالى:

{**الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً**}

الأعراف: ٤٥، هود: ١٩.

---

(١) راجع تفسير الآلوسي ٣: ٩٠.

اهتمام رسول اللّه (ص)

بتنقية الإسلام من الثقافات الأخرى

روى جابر بن عبد الله: ›أنّ عمر بن الخطاب قال لرسول الله 2 : إنا نسمع أحاديث من يهود فتعجبنا. أفَترى أن نكتب بعضها؟

فقال: فتهلكون أنتم، كما هلكت اليهود والنصارى. لقد جئتكم بها بيضاء نقية، ولو كان موسى حياً ما وسعه إلاّ إتباعي‹.

وفي رواية أخرى: أن عمر بن الخطاب قال: يا رسول الله، إن أناساً من أهل الكتاب يحدثوننا بما يعجبنا، فلو كتبناه، فغضب 2 ، وقال: ›فتهلكون أنتم يا بن الخطاب كما هلكت اليهود والنصارى. أما والذي نفسي بيده، لقد أتيتكم بها بيضاء نقية‹(١).

وفي رواية أخرى قال راوي الحديث: (فتغير وجه رسول

---

(١) تفسير البغوي ١: ٢٤ في تفسير الآية ٢٠٨ من سورة البقرة. وفي تفسير الرازي ٤: ٣٥١. والدر المنثور ٩: ٤٦. وتفسير الثعلبي ١: ٢٢٣. وتفسير الرازي (مفاتيح الغيب) ٨: ١٦٥. ومشكاة المصابيح ١: ٣٨.

الله تغيراً شديداً لم أرَ مثله قط، فقال عبد الله بن الحرث لعمر: أما ترى وجه رسول الله)[1].

دور اليهود في التلفيق الثقافي في الإسلام

روي عن ابن عباس أنه حضر مجلس عمر بن الخطاب يوماً، وعنده كعب الأحبار، إذ قال عمر: يا كعب، أحافظ أنت للتوراة؟ قال كعب: إني لأحفظ منها كثيراً، فقال رجل من جنبه: يا أميرالمؤمنين، سله أين كان الله جلّ جلاله قبل أن يخلق عرشه؟ ومم خلق الماء الذي جعل عليه عرشه؟

فقال عمر: يا كعب، هل عندك من هذا علم؟

فقال كعب: نعم، يا أميرالمؤمنين، نجد في الأصل الحكيم أن الله تبارك وتعالى كان قديماً قبل خلق العرش، وكان على صخرة بيت المقدس في الهواء، فلما أراد أن يخلق عرشه تفل تفلة كانت منها البحار الغامرة واللجج الدائرة، فهناك خلق عرشه من بعض الصخرة التي كانت تحته، وآخر ما بقي منها لمسجد قدسه.

قال ابن عباس: وكان علي بن أبي طالب حاضراً.. فعظّم

(١) شرح نهج البلاغة ٣: ٢١٤.

ربه وقام على قدميه ونفض ثيابه، فأقسم عليه عمر أن يعود إلى مجلسه، ففعل، قال عمر: غص عليها يا غواص، ما يقول أبو حسن فما علمتك إلاّ مفرجاً للغم؟ فالتفت عليﷺ إلى كعب فقال:

‹غلط أصحابك وحرّفوا كتب الله، وقبّحوا الفرية عليه. يا كعب، ويحك، إن الصخرة والهواء إن كانا قديمين معه لكانت لهما قدمته، وعزّ الله وجلّ أن يقال له مكان يومى إليه، والله ليس كما يقول الملحدون، ولا كما يظن الجاهلون، ولكن كان ولا مكان بحيث لا تبلغه الأذهان، وقولي: (كان) لتعريف كونه، وهو مما علم من البيان، يقول الله عزّوجلّ: {**خَلَقَ الإنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ**}(١)، فقولي له كان مما علمني البيان لأنطق بحجة عظمة المنان، ولم يزل ربنا مقتدراً على ما يشاء، محيطاً بكل الأشياء، ثم كوّن ما أراد بلا فكرة حادثة له، ولا بشبهة دخلت عليه فيما أراد، وإنه عزّوجلّ خلق نوراً ابتدعه من غير شيء، ثم خلق منه ظلمة وكان قديراً أن يخلق الظلمة لا من شيء، كما خلق النور من غير شيء، ثم

---

(١) الرحمن: ٣ ـ ٤.

خلق من الظلمة نوراً، ثم خلق عرشه من نوره، وجعله على الماء، وكان العرش على الماء من دون حجب الضباب، وذلك قوله: {**وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاء لِيَبْلُوَكُمْ**}[١]. يا كعب، ويحك، إن من كانت البحار تفلته ـ على قولك ـ كان أعظم من أن تحويه صخرة بيت المقدس، أو يحويه الهواء الذي أشرت إليه أنه حل فيه>.

فضحك عمر بن الخطاب، وقال: هذا هو الأمر، وهكذا العلم لا كعلمك يا كعب، لا عشت إلى زمان لا أرى فيه أبا حسن[٢].

---

(١) هود: ٧.

(٢) بحار الأنوار ٣٠: ١٠١ ـ ١٠٢ /ح ٦، عن مجموعة ورام ٢: ٥ ـ ٦.

٤ ـ أزمة الانتماء

الانتماء:

الانتماء هو الارتباط المحوري في حياة الإنسان.

وإنما نعبر عنه بالارتباط المحوري لأن في حياة الإنسان ارتباطات كثيرة ومحاور كبرى وصغيرة عديدة تستقطب اهتمام الإنسان، وتنظم حياته وعلاقاته، كالأولاد والأزواج والأموال والآباء والأمهات والأرحام والجيران وغيرها.

ولكن في حياة الإنسان ارتباطاً محورياً يحكمه ويتحكم في كل علاقاته وارتباطاته فيلغي الإنسان ارتباطاته الأخرى من أجله، وقد يقاتل الأب ابنه، ويقاتل الابن أباه، ويفارق الزوج زوجه، ويقاطع الرحم رحمه عندما يقاطعه في هذا الانتماء.

ويتحكم في حبه وبغضه، وفي رضاه وسخطه، وفي قبوله ورفضه، وفي حركته وسكونه، وفي منطقه وسكوته وموقفه.

وواضح من هذا التعريف أن هذا الارتباط يختلف اختلافاً كبيراً عن الارتباطات الأخرى في حياة الإنسان، وتتحكم فيها وتحكمها.

وهذا هو الذي نقصده بـ (الانتماء) وهو المقصود بـ (الولاء) في المفاهيم والمصطلحات الإسلامية، ولك أن

تسميها بالعلاقة العضوية في المجتمعات البشرية، وهو من ضرورات حياة الإنسان دون سائر الأحياء. فليس في حياة الحيوان هذا النوع من الانتماء.

والطاعة والارتباط والنظام الموجود في حياة النحل والنمل والأرضة وغيرها شيء آخر غير الانتماء والولاء.

وعندما تخلو حياة الإنسان عن الانتماء والولاء يشعر الإنسان بفراغ واسع لا يملؤه شيء. وربما يحاول أن يملأ الإنسان الذي تخلو حياته من الولاء والانتماء باللهو واللذات والمتع والاستغراق في متاع الحياة الدنيا..

ولكن الاستغراق في متاع الحياة الدنيا لا يسدّ في نفسه هذه الضرورة، ولا يحل محلها، ولكنها قد تلهيه وتشغله عنها، وبينهما فرق.

الانتماء إلى الله

والمحور الوحيد الذي يستحق في حياة الإنسان هذا الانتماء والاهتمام والموقع هو الله سبحانه وتعالى، فهو سبحانه وتعالى الخالق، البارئ، المهيمن، العزيز، الحي، القيوم ذو الجلال والجمال والإكرام، الرحمن، الرحيم، الحكيم، العليم، المطلق، يخرج عباده من الظلمات إلى النور. والمحاور الأخرى التي

يتّخذها الناس مخلوقين ضعفاء، حياتهم وموتهم بيد الله تعالى، لا يملكون حولاً ولا قوة من دون الله، إن يسلبهم الذباب شيئاً، لم يسعهم أن يسترجعوه، ضعف الطالب والمطلوب.

هؤلاء يخرجون أوليائهم من النور إلى الظلمات.

{اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} البقرة: ٢٥٧.

إذن، الانتماء الحق في حياة الإنسان هو الانتماء إلى الله تعالى، ومن يأمر الله بالانتماء إليه من أنبيائه ورسله وأوليائه وعباده الصالحين.

{إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ} المائدة: ٥٥.

وسائر الانتماءات في حياة الإنسان باطلة ألغاها الإسلام مرة واحدة، كائناً ما كان، إلاّ أن يكون في امتداد ولاية الله تعالى.

قيمة الإنسان بالانتماء إلى الله

لقد كانت دعوة الأنبياء ^ جميعاً: الانتماء إلى الله،

إيماناً به، وتوحيداً له في العقيدة وإخلاصاً له في العمل، والالتزام بشريعته وأحكامه، والدخول في دائرة الولاء لله ولرسوله وأوليائه ومقاطعة أعدائهم ومفاصلتهم.

وهذا الانتماء هو خلاصة دعوات الأنبياء ^ .

وقيمة الإنسان بهذا الانتماء.

فكلما يكون انشداد الإنسان بهذه الدعوة أوثق وانتماؤه إليها أقوى تزداد قيمته عند الله، وكلما يكون انتماؤه إليها أضعف تقلّ قيمته عند الله.

فإذا فقد الإنسان الانتماء الانتماء إلى الله ودعوته ورسله وأوليائه تماماً فقد قيمته عند الله.

أزمة الانتماء

وهذه المسألة مسألة أساسية ومحورية في ثقافتنا، وأي خلل في مسألة الانتماء يؤدي إلى شرخ عميق في ثقافتنا.

ونحن نواجه ثلاث مشاكل كبيرة في مسألة الانتماء، نتحدث عنها باختصار إن شاء الله:

١ ـ التعويم في الانتماء.

٢ ـ التقليد في الانتماء.

٣ ـ فقدان الانتماء.

وسوف نتحدث إن شاء الله عن هذه العناوين الثلاثة واحدة بعد أخرى، باختصار شديد، بقدر ما يسمح به هذا الكتاب.

١ ـ حالة التعويم في الانتماء:

وهي حالة واسعة الانتشار في الفئات المنافقة والفئات الانتهازية، التي تركب كل موجة مقبلة، وتتخلى عن كل موجة مدبرة فهي تُقدّر انتماءها الديني والسياسي بإقبال الموجات السياسية وإدبارها.

وللتعريف بهذه الحالة.. نستعير كلمة ذكرها أحد القادة الانجليز في الحرب العالمية الثانية في مباني وأصول سياسة بريطانيا وعلاقاتها السياسية والدبلوماسية مع العالم.. قال: ليس لانجلترا أصدقاء دائميون وإنما لها مصالح دائمة.

والكلمة نفسها تنطبق على هذه المجاميع، ليست لديها مبادئ دائمية، وإنما لها مصالح مادية ومواقع سياسية واجتماعية دائمة.

ولذلك فهم يركبون كل موجة مقبلة، ويعرضون عن كل موجة مدبرة.

وأفضل كلمة في التعبير عن هذه المجموعة كلمة الإمام

الحسين عليه السلام في التعريف بالناس الذين تخلوا عن نصرته ووقفوا مع بني أمية.

›الناس عبيد الدنيا، والدين لعق على ألسنتهم، يحوطونه ما درّت معايشهم، فإذا محّصوا بالبلاء قلّ الديانون‹[١].

ويقسّم أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في حديثه لكميل الناس إلى ثلاث أصناف: ›عالم رباني، ومتعلم على سبيل النجاة، وهمج رعاع أتباع كل ناعق‹.

هؤلاء لا ينالون من الدين ما يقوّم سلوكهم ومنطقهم ومواقفهم، وإنّما حظهم من الدين قدر ما يبقي على طرف اللسان من أثر الطعام وذوقه، وهو لا يشبع صاحبه ولا يقوّم جسمه. (والدين لعق على ألسنتهم). ولماذا لعق على ألسنتهم فقط، لأن هؤلاء لا يأخذون من الدين إلاّ بقدر ما يتحدثون عنه بطرف لسانهم، ولم ينفذ الدين إلى قلوبهم وعقولهم، ولم ينعكس على سلوكهم ومواقفهم.

وحتى الحديث عن الدين بطرف اللسان، وليس في كل الأحوال، وإنما بقدر ما تدرّ معايشهم. (يدورونه ما درّت

---

(١) بحار الأنوار ٧٨: ١١٦.

معايشهم).

وانتماؤهم الحقيقي ليس إلى الدين، وإنما إلى الدنيا، وهو انتماء ذليل، ليس فيه عزّة ولا كرامة، هؤلاء هم الذين يصفهم الحسين عليه السلام بأنهم (عبيد الدنيا).

وبقدر ما يؤمّن الدين معايشهم في الدنيا، يدورون مع الدين، فإذا تخالفت الخطوط بين الدين والدنيا، وبلغوا نقطة المفرق التي لابد فيها من اختيار أحدهما، اختاروا الدنيا على الدين، ويقلّ الديانون عندئذ في الناس.

وهذه الحالة هي التي عبرنا عنها بـ (التعويم في الانتماء). هؤلاء كالخشبة العائمة على الماء تأخذهم الأمواج يميناً وشمالاً، ليس لهم ثقل في موازين الحق والعدل.

وهذه الطبقة، وهي للأسف واسعة، لا يُعدّ إقبالها قوة لجبهة الحق، لأنها سرعان ما تنفض عنها، ولكن حضورها غرور باطل وانفضاضها عن الحق إضعاف للحق.

ولذلك فإن الله تعالى يبتلي العصابة المؤمنة في مسير الحركة والجهاد بابتلاءات صعبة، لينفصل عنها هؤلاء، وتتهذّب الجماعة المؤمنة منها، قبل أن ينفضوا عنها في ساعة البأساء والضرّاء.

فإن نفوذ هذه المجموعات داخل الجماعة المؤمنة خطر لأمنها وثقافتها.

٢ ـ التقليد في الانتماء:

التقليد ضرورة من ضرورات الحياة، ولكن بقدر ما هو ضرورة يُعدّ خطراً على ثقافة الأمة، عندما يفقد التقليد حالة الوعي، ويتحوّل إلى تبعية غير واعية للأسلاف.

ومن أخطر أنماط التقليد، التقليد في الانتماء. فإن مقولة (الانتماء) مقولة متميزة دائماً عن سائر المقولات، ولابد فيها من الاختيار عن وعي وبصيرة ومعرفة، ويشجب القرآن هذا النمط من التقليد غير الواعي للآباء والأسلاف في مواضع عديدة.

يقول تعالى: {**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُول قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ**} المائدة: ١٠٤.

وبسبب هذه الحالة من الانغلاق على الآباء والأسلاف ينادي القرآن أتباع موسى بن عمران عليه السلام بـ (يا بني إسرائيل) رغم أن دعوة موسى بن عمران عليه السلام هي الإسلام بالتأكيد، ولكن بني إسرائيل بقوا متعلّقين بالآباء والأسلاف منغلقين على الهدى الذي جاء به إليهم موسى بن عمران (ع)، وكأنّ

هذا الخطاب يشعرهم بالانتماء القومي دون الانتماء المنفتح على الله وأنبيائه في كل عصر.

ويبقى التقليد في الانتماء مرفوضاً حتى لو كان التقليد في الانتماء إلى الحق، فإن الله يحب من عباده أن يكون انتماؤهم إليه عز شأنه وإلى دعوته وأنبيائه عن وعي وبصيرة ومعرفة لا عن صمم وعمى، ومن دون وعي وبصيرة.

يقول تعالى: {**وَالَّـذِينَ إِذَا ذُكِّـرُوا بِآيَـاتِ رَبِّهِـمْ لَـمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً**} الفرقان: ٧٣.

فإن الله تعالى يكره لعبده أن يقبل على آياته في كتابه من دون وعي وبصيرة، وعن عمى وصمم.

٣ ـ فقدان الانتماء:

وهناك فئة ثالثة عديمة الانتماء، يقف على مشاهد الصراع بين الحق والباطل، بحالة من اللامبالاة، كما لو وقف أحدنا على مشهد من مشاهد مباريات كرة القدم بين فريقين من اللاعبين لا يمت إلى أحدهما بصلة.

كذلك هذه الفئة، تقف من ساحة الصراع الضاري بين الحق والباطل موقف اللامبالاة، انتصرت هذه الفئة أو تلك.

حالة من الاستعلاء على (الانتماء) إلى الله ودعوته

وأنبيائه ^ .

ولست أدري كيف أعبّر عن حالة هذه الفئة من مجتمعنا: فراغ في الانتماء والاهتمامات العالية في الحياة الدنيا، واكتفاء بالمكاسب المادية في الحياة الدنيا. كما قال الشاعر:

دع المكـــارم لا ترحـــل لبغيتهـــا
واقعد فانـك أنـت الطـاعم الكاسـي[1]

ومهما يكن من أمر فإن هـذه الفئـة مـن النـاس لا تتجـاوز اهتماماتها حدود الحاجات الغريزيـة والشخصـية والمكاسـب المادية العائدة إليهم، ترضى وتغضـب لهـا، وتتحـرك وتعمـل لتحقيقها.

وقـد خلـق الله تعـالى الإنسـان لغايـات أعظـم وأكبـر منهـا بكثير.

وجاء الأنبياء من عند الله يـدعون الإنسـان إلـى الإيمـان بـالله، والعبودية لله، والتوحيد، والتقوى، والإخلاص، والالتـزام بشـريعة الله، والولاء لله ولرسوله ولأوليائه، والبراءة من أعدائهم..

وتقتـرن دعـوة الأنبيـاءعليهم السلام بـالموقف والرضـا والغضـب

(١) الشعر لحطيئة.

والقبول والرفض والإيمان والالتزام والعمل والحب والبغض.. في كلّ هذه الدائرة الواسعة العظيمة من الاهتمامات.

والانتماء إلى هذه الدعوة والرسالة يستتبع هذه النقاط كلها، فيُحب ويُبغض لله وفي الله، ويرضى ويغضب، ويقبل ويرفض، كل ذلك لله وفي الله وابتغاءً لمرضاة الله.

وإذا تجرد الإنسان من ذلك يفقد ذلك كله، فيكون رضاه، وغضبه، وحبه، وبغضه، وقبوله، ورفضه، وعمله، وحركته لنفسه فقط، وفي دائرة محدودة ضيقة من المكاسب والرغبات الشخصية.

وشتّان بين هذا النموذج من الناس وذاك.

وأكثر ما تكون هذه الحالة من فراغ الانتماء والاهتمامات في الطبقة المترفة من الناس، أولئك يشغلهم متاع الحياة الدنيا وحطامها عن الاهتمامات العالية والانتماء إليها ومعايشتها.

ولذلك كان الصالحون العارفون من عباد الله يحذرون حالات الترف، حتى المباحة منها لئلاّ يسقطون في مستنقع الحياة الدنيا، فلا يستطيعون انتشال أنفسهم منها.

الفهرس